

تفسير ابن كثير

كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحياءه الأرض بعد موتها كما في أول سورة الحج يتبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك فإن الأرض تكون ميته هامدة لا نبات فيها فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها { اهتزت وربت وأنبت من كل زوج بهيج } كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشرورها أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميراً ونبت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض ولهذا جاء في الصحيح [كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق ومنه يركب] ولهذا قال تعالى : { كذلك النشور } وتقديم في الحج حديث أبي رزين قلت : [يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال صلى الله عليه وسلم يا أبو رزين أما مررت بوادي قومك محملاً ثم مررت به يهتز خضراً قلت : بلى قال صلى الله عليه وسلم : وكذلك يحيي الله الموتى] .

وقوله تعالى : { من كان يريد العزة فـ العزة جميراً } أي من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والأخرة فلilزم طاعة الله تعالى فإنه يحصل له مقصوده لأن الله تعالى مالك الدنيا والأخرة وله العزة جميراً كما قال تعالى : { الذين يتذدون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أبى يتغون عندهم العزة فإن العزة هي جميراً } وقال د : { ولا يحزنك قولهم إن العزة هي جميراً } وقال جل جلاله { و الله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المناقين لا يعلمون } قال مجاهد { من كان يريد العزة } بعبادة الأولئك { فـ العزة جميراً } وقال قتادة { من كان يريد العزة فـ العزة جميراً } أي فليتعذر بطاعة الله وقيل من كان يريد علم العزة لمن هي فـ العزة جميراً } وحكاه ابن جرير .

وقوله تبارك وتعالى : { إليه يصعد الكلم الطيب } يعني الذكر والتلاوة والدعاء قاله غير واحد من السلف وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي أخبرني جعفر بن عون عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي عن عبد الله بن المخارق عن أبيه المخارق بن سليم قال : قال لنا عبد الله هو ابن مسعود : إذا حدثناكم بحديث أتييناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى [إن العبد المسلم إذا قال سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إله إلا الله أكبر تبارك الله أخذهن ملك يجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا واستغفروا لقائهم حتى يجيء بهن وجه الله ثم قرأ عبد الله { إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه } وحدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علي أخبرنا سعيد الجريري عن عبد الله بن شقيق قال : قال كعب الأحبار : [إن لسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله أكبر لدويا حول العرش كدوى النحل يذكرون لصاحبهن والعمل الصالح في

الخزائن] وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار رحمة الله عليه وقد روی مرفوعا .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير حدثنا موسى يعني ابن مسلم الطحان عن عون بن عبد الله عن أبيه أو عن أخيه عن النعمان بن بشير له قال : [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الذين يذكرون من جلال الله من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله يتغافلون حول العرش لهم دوى كدوى النحل يذكرون بصاحبهم ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به] وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بشر خلف عن يحيى بن سعيد القطان عن موسى بن أبي عيسى الطحان عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أبيه أو عن أخيه عن النعمان بن بشير له به .

وقوله تعالى : { والعمل الصالح يرفعه } قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لهما : الكلم الطيب ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله والعمل الصالح أداء الفريضة فمن ذكر الله تعالى في أداء فرائضه حمل عمله وذكر الله تعالى به إلى الله ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفعه الكلام الطيب وكذا قال أبو العالية وعكرمة وإبراهيم النخعي والضحاك والسدي والربيع بن أنس وشهر بن حوشب وغير واحد وقال إياس بن معاوية القاضي لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام وقال الحسن وقتادة : لا يقبل قول إلا بعمل .

وقوله تعالى : { والذين يمکرون السیئات } قال مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب : هم المراوغون بأعمالهم يعني يمکرون بالناس يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى وهم بغباء إلى الله يراوغون بأعمالهم { ولا يذكرون الله إلا قليلا } وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المشركون وال الصحيح أنها عامة والمشركون داخلون بطريق الأولى ولهذا قال تعالى : { لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور } أي يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهي فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداه الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداءها إن خيرا فخير وإن شرا فشر فالمرأئي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي أما المؤمنين المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم بل ينكشف لهم عن قريب وعالم الغيب لا تخفي عليه خافية .

وقوله تبارك وتعالى : { والله خلقكم من تراب ثم من نطفة } أي ابتدأ خلق أبيكם من تراب ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين { ثم جعلكم أزواجا } أي ذكرا وأنثى لطفا منه ورحمة أن جعل لكم أزواجا من جنسكم لتسكنوا إليها قوله الله : { وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه } أي هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء بل { ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في طلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين } وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : { الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال } .

وقوله D : { وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب } أي ما يعطي بعض النطاف من العمر الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول { ولا ينقص من عمره } الضمير عائد على الجنس لا على العين لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره وإنما عاد الضمير على الجنس قال ابن جرير : وهذا كقولهم عندي ثوب ونصفه أي هو ونصف ثوب آخر وروي من طريق العوفي عن ابن عباس هما في قوله تعالى : { وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير } يقول : ليس أحد قضى له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضى ذلك له فإذا نما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له فذلك قوله تعالى : { ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير } يقول : كل ذلك في كتاب عنده وهكذا قال الصحاح بن مزاحم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه { ولا ينقص من عمره إلا في كتاب } قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام وقال عبد الرحمن في تفسيرها : ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة وآخر يموت حين يولد فهذا هذا وقال قتادة : والذي ينقص من عمره فالذي يموت قبل ستين سنة وقال مجاهد { وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب } أي في بطنه أمه يكتب له ذلك لم يخلق على عمر واحد بل لهذا عمر ولهذا عمر هو أنقص من عمره فكل ذلك مكتوب لصاحبها بالغ ما بلغ وقال بعضهم : بل معناه { وما يعمر من معمر } أي ما يكتب من الأجل { ولا ينقص من عمره } وهو ذهابه قليلاً قليلاً الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة وشهرًا بعد شهر وجمعة بعد جمعة ويوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة الجميع مكتوب عند الله تعالى في كتابه نقله ابن جرير عن أبي مالك وإليه ذهب السدي وعطاء الخراساني واختار ابن جرير الأول وهو كما قال .

وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة : حدثنا أحمد بن يحيى بن أبي زيد بن سليمان قال : سمعت ابن وهب يقول : حدثني يونس عن ابن شهاب عن أنس بن مالك هـ قال : [سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه] وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود من حديث يونس بن يزيد الأيلبي به .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين حدثنا الوليد بن الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو سرح حدثنا عثمان بن عطاء عن مسلمة بن عبد الله عن عمته أبي مشجعة بن رباعي عن أبي الدرداء هـ قال : ذكرنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : [إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد فيدعون له من بعده فيلتحقه دعاوهم في قبره بذلك زيادة العمر] وقوله D : { إن ذلك على الله يسير } أي سهل عليه يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته فإن علمه شامل للجميع لا يخفى

عليه شيء منها